الحدبات في الحديقة

قصة بقلم دينو بوزاتي
ترجمة عايدة مطرجي ادريس

عندما يهبط الليل ، احب ان اتنزه في الحديقة . لا تعتقدوا انني غني . فانكم جميعا تملكون حديقة كحديقتي . وسوف تفهمون السبب فيما بعد .

في الظلمة ، ولكنها مع ذلك ليست بالظلمة التامة لان ثمة انعكاسا خفيفا يتسلل من نوافذ البيت المضاءة . في الظلمة ، امشي على الحشيش ، فيغرز حذائي قليلا في العشب ، وفي اثناء ذلك ، افكر ، وفيما انا افكر ، ارفع عيني لارى اذا كانت السماء صافية ، اذا كان ثمة نجوم . واتأمل النجوم وانا اطرح على نفسي جملة من الاسئلة . بيد انني ، في كثير من الليالي ، لا اطرح على نفسي اسئلة ، والنجوم عالقة في الاعالي ، فوقي ، بليدة بلهاء ، لا تقول لي شيئا .

كنت فتى صغيرا عندما اصطدمت بعقبة اثناء نزهتي الليلية ، واذا لم اكن ادري ما هي فقد اشعلت عودا من الكبريت . وعلى سطح الحشيش المالس ، كان هناك شيء غريب ، نتوء ما .

وفكرت : ربما كان البستاني قد فعل شيئا . سوف اسأله غدا صباحا .

وفي اليوم التالي ، ناديت البستاني ، وكان يدعى جياكومو . وقلت له :

ـ ماذا فعلت في الحديقة ؟ هناك شيء كالحدبة على الحشيش . ومساء امس اصطدمت به ، وقد رأيته اذ كان النهار يشرق . انها حدبة مستطيلة وضيقة . انها تشبه حجر قبر مخروطي الشكل . هل تريد ان تقولي لي ماذا يعني هذا ؟

ـ قال البستاني جياكومو : انها يا سيدي لا تشبه فقط حجر قبر بل انها حقا كذلك . ففي الامس ، يا سيدي ، توفي احد اصدقائك .

وكان ذلك صحيحا . كان افضل اصدقائي ساندرو برتولي قد توفي في الجبل ، وقد تحطمت جمجمته . وكان في الحادية والعشرين من عمره .

سألت جيوكومو : هل تريد ان تقول لي ان صديقي قد دفن هنا ؟

واجابني : لا . ان صديقك برتولي . وكان يتكلم بهذه الطريقة لانه كان من الجيل القديم ، وبسبب ذلك كان مهذبا ـ قد دفن عند سفح الجبل الذي تعرفه . ولكن هنا ، في الحديقة ، فان العشب قد ارتفع لوحده ، لان الحديقة هي حديقتك ، يا سيدي ، وكل ما يحصل لك في الحياة يكون له ارتداد هنا .

قلت له : كفى ، كفى ، ارجوك ، انها خرافات عابثة . ستسرني بأن تزيل هذه الحدبة .

ـ واجابني : لا استطيع يا سيدي ، والوف البستانيين غيري لن ينجحوا اكثر مني في ازالة هذه الحدبة .

وفيما بعد ، لم نفعل شيئا وبقيت الحدبة . واستأنفت ، في المساء ، اذ يهبط الليل ، تنزهي في الحديقة ، وكان يتفق لي ، بين حين واخر ، ان اتعثر بالحدبة ، ولم يكن يحدث ذلك كثيرا لان الحديقة كانت واسعة بما فيه الكفاية . كانت حدبة يبلغ عرضها سبعين سنتمترا وطولها مترا وتسعين . وكان العشب ينبت فيها وكان يبدو انه يبلغ في ارتفاعه حوالي خمسة وعشرين سنتمترا فوق سطح الحقل . وبالطبع ، كلما كنت اتعثر بها ، كنت افكر به ، بالصديق العزيز الذي فقدته . ولكن ربما كان العكس هو الصحيح . ربما كنت اصطدم بالحدبة لا لشيء الا لانني كنت افكر في تلك اللحظة بصديقي . ان هذه الامور هي بالاحرى شاقة على الفهم وعلى الشرح .

فمثلا ، كان من الممكن ان يمضي شهران او ثلاثة اشهر من غير ان القى ، في الظلمة ، اثناء نزهتي الليلية ، هذا النتوء الصغير . وفي هذه الحالة ، كانت ذكراه تعاودني ، اذ ذاك ، كنت اتوقف ، وفي سكون الليل ، كنت اتساءل ، بصوت مرتفع :

ـ هل تنام ؟

ولكنه لم يكن يجيب .

كان ينام بالفعل ، ولكن بعيدا من هنا ، تحت الصخور العالية ، في قبر جبلي ، وكلما كانت السنوات تتتابع ، لم يكن احد يتذكره بعد ، ولم يكن احد يحمل له الزهور .

ومع ذلك ، فقد مرت سنوات عديدة ، وها انني ، ذات مساء ، اثناء نزهتي ، اتعثر ، في الزاوية المقابلة للحديقة ، بحدبة اخرى .

ولولا القليل لكدت ان انبطح على طولي . كان الليل قد تجاوز نصفه . وكان جميع الناس قد لجأوا الى النوم ،

ولكن اهتياجي كان شديداً الى حد اخذت انادي : جياكومو .. جياكومو .. لاوقظه .

وأضيئت نافذة اطل جياكومو منها .

وصرخت : ما هذه الحدبة ايضا ؟ هل حفرت من هنا ؟

واجاب : ـ لا ، يا سيدي ، لقد حدث ان مات احد زملائك الذين كنت تخبهم كثيرا . ويدعى كورنالي.

●

ولكن بعد فترة طويلة ، تعثرت بحدبة ثالثة ، وبالرغم من ان الليل كان حالكا ، فقد ناديت هذه المرة ايضا جياكومو الذي كان نائما . وكنت اعرف جيدا ، بعد الان ما كانت تعنيه هذه الحدبة ، ولكنني لم اكن قد تلقيت انباء سيئة هذا النهار ، وكنت قلقا لان اعلم . واطل جياكومو ، ذو الطبع البارد ، من النافذة .

وسألت : من ؟ هل مات احد ؟

واجاب : نعم يا سيدي . انه يدعى غيسبت باتاني.

●

ثم مرت سنوات هادئة بعض الشيء ، ولكن في وقت ما اخذت الحدبات تتكاثر بين حشائش الحديقة بشكل اعنف . كانت من بينها حدبات صغيرة ، ولكن حدبات ضخمة ايضا كانت ترتفع ولم يكن بالامكان عبورها بخطوة واحدة . وكان على المرء ان يصعد من جهة لكي ينحدر من الجهة الاخرى ، كما لو انها كانت تلالا صغيرة. وكان ثمة حدبتان من هذا الحجم ، متقاربتان . ولم يكن من الضروري اطلاقا ان اسأل جياكومو عما حدث ، فهنا، تحت هاتين الحدبتين العاليتين كبقرتين وحشيتين كانت لحظات عزيزة جدا من حياتي قد انتهت بشكل مفجع .

لاجل ذلك ، كنت ، كلما تعثرت ، في الظلمة،بهاتين الهضبتين المريعتين ، كانت ذكريات مؤلمة من كل نوع تعود فتحيا في نفسي . وكنت ابقى هنا ، كولد مذعور ، انادي اصدقائي واحدا واحدا . كنت انادي كورنالي ، باتانه روبيزي ، لو لونغانيزي ، موري ، كنت انادي جميع الذين كانوا قد كبروا معي ، الذين عملوا معي اعواما طويلة .

وبصوت اكثر ارتفاعا ، كنت اصرخ ، نيغرو ! فيرغاني ! » ، كما لو كنت اناديهم ، ولكن لم يكن احد يجيب .

هكذا تحولت حديقتي ، التي كانت فيما مضى،ملساء سهلة الولوج ، تحولت شيئا فشيئا الى ميدان معركة . صحيح انه ما يزال فيها العشب ، ولكن الحقل يرتفع وينخفض في سراديب من التلال والحدبات والنتوءات والمرتفعات وكانت كل واحدة من هذه النتوءات الغريبة النامية تخص اسما وكل اسم يخص صديقا وكل صديق يخص قبرا بعيدا وفجوة في نفسي .

ثم ظهرت في حديقتي هذا الصيف حدبة مرتفعة الى حد انني عندما اقتربت منها ، حجب وجهها الجانبي عني مرأى النجوم . كانت عالية كالفيل ، كبيت صغير . كان شيئا مريعا ان يصعدها الانسان ، كانت متسلقا حقيقيا . وكان من الضروري تجنبها والدوران حولها .

في ذلك اليوم ، لم يكن قد وصلني اي نبأ سيىء ، مما جعل هذا الشيء الجديد في الحديقة يدهشني كثيرا، ولكنني ، هذه المرة ايضا ، عرفت السبب حالا . ان اعز اصدقاء شبابي قد رحل . فبيني وبينه كانت هناك حقائق كثيرة ، وكنا قد اكتشفنا معا العالم والحياة واجمل الاشياء . ومعا كنا قد سبرنا اغوار الشعر والرسم والموسيقى والجبل فكان من المنطقي ، ان يتوجب وجود جبل حقيقي صغير لكي يحتوي كل هذه المادة اللامحدودة، المختصرة والمركبة في اكثر التعابير ايجازا .

في هذه اللحظة ، اخذتني حركة تمرد . وقلت لنفسي مذعورا : لا ، ان هذا لا يمكن ان يكون . ومرة اخرى ناديت الاصدقاء باسمائهم . كورنالي ، باتاني ، ريبيزي ، لونكانيزي ، موري ، نيغرو ، فيرغاني ، سيفالا، اورلاندي ، شياريللي ، برمبيللا . وحين وصلت الى هذه النقطة حدث في الليل ما يشبه همسة كانت تجيبني « نعم » وسأقسم بأن صوتا ما كان يرد علي « نعم » ، صوتا كان يأتي من عالم اخر . ولكن ربما كان فقط صوت عصفور ليلي ذاك ان حديقتي كانت تغري الطيور الليلية.

والان . ارجوكم الا تقولوا لي « لماذا انت تكرر قصصا محزنة الى هذا الحد ؟ . ان الحياة قصيرة وصعبة في حد ذاتها بحيث انه يغدو من البلاهة ان يسممها المرء لنفسه باحاديث مقصودة . وبعد كل شيء، فان هذه الاحزان لا تعنينا ، انها لا تتعلق الا بك ، بك وحدك » . وانني اجيبكم : « لا ، ويا للاسف ، انها تعنيكم ، انتم ايضا . سيكون من الافضل ، واناا اعلم ذلك، لو انها لا تعنيكم . لان قصة هذه الحدبات في العشب تحصل للجميع . وكل منا ، وانا هنا اوضح فكرتي اخيرا، يملك حديقة تحدث فيها هذه الظواهر المؤلمة . انها قصة قديمة تعيد نفسها منذ بدء العصور والتي ستتكرر لكم ايضا . وهي ليست رمزا ادبيا صغيرا . والامور هي حقا كذلك .

انني لاتساءل بالطبع ، ان كانت حدبة تخصني ستبزغ يوما في حديقة ما .. اوه ، حدبة صغيرة من الدرجة الثالثة ، لا تزيد عن تموج للعشب ، لا يكاد المرء يلحظه حين تبلغ الشمس السمت . ومهما يكن فلا بد ان يوجد شخص في العالم ، شخص واحد على الاقل ، يتعثر بها.

ان من الممكن ، بسبب طبعي السيىء ، أن اموت متوخدا ، ككلب ، في اعماق ممر قديم مهجور . ومع ذلك ، فان شخصا ما سيتعثر ذلك المساء بالحدبة الصغيرة النابتة في حديقته ويتعثر بها ايضا في الليلة التالية وفي كل مرة سيفكر (اعذروا وهمي) في شيء من الاسف ، بشخص ما كان يدعى دينو بوزاتي .

دينو بوزاتي

ترجمة عايدة مطرجي ادريس